

## الرجل

ليس لشكسبير صورة مرسومة في أيام حياته، وكل ما يرى اليوم من الصور والتمائيل التي تختلف فيها الملامح والأوضاع فهو نسخ منقولة من تمثاله النصفى على ضريحه أو من صورة صنعت له بعد موته بسنوات، وهى صورة دروشوت Droeshout التي ظهرت فى الطبعة الأولى من مجموعة رواياته وقصائده.

وصانع هذه الصورة مارتن دروشوت (١٦٠١ - ١٦٥٠م) مهندس فلمنكى نزل بلندن مع أبويه ولم تكن سنه تزيد على خمس عشرة سنة حين مات شكسبير فى سنة ١٦١٦م ومضت ست سنوات بعد موته حين صنع الصورة فى أواخر سنة ١٦٢٢م قبيل ظهور الطبعة الأولى من المجموعة.

والمفهوم أنه استعان فى استحضار ملامح الصورة برسم تخطيطى تممه بما وعته ذاكرته وراجعه فيه زملاء الشاعر وعارفوه، وجاءت الصورة على ما يظهر مطابقة لقسمات الوجه وتركيب الجسم غاية المستطاع، لأن بن جونسون الشاعر - أعرف الناس بشكسبير - كان يرتضيها ويلمح فيها صفات صاحبه وزميله، وقد كتب تحتها أسطرًا منظومة قال فيها يخاطب القارئ: «إن هذا الرسم المائل أمامك يحكى فيه الرسام صورة شكسبير الرضى الوديع، وإنه



وليم شكسپير

ليجتهد اجتهاده أن يبارى الطبيعة في صنيعها، ولكنه لو استطاع أن يرسم ذكاه كما رسم طلعتة لفاقت الصورة الكتاب، فأما وهو غير مستطيع فهناك صورة ذكائه فانظر إليها في حروف هذه الصفحات»...

وقد حاول الرسام جهده أن يودع صورته لمحات من صفات النفس كما تنم عليها ملامح الوجوه، فوضحت فيها صفات اللطف والوداعة التي قدمها بن جونسون على سائر صفاته، وبدا فيها مع سماحة الطباع شيء من الجنوح إلى العزوف والاحتجاز في غير جهامة، وشيء من الاعتزاز في غير صلف أو مناجزة، كأنها تنبيه خافت يهمس ولا يجهر، ولكنه لا يهمل ولا يأذن للناظر إليه أن ينساه.

ولا بد أن يكون شكسبير رضى الخلق حقاً ليذكره بن جونسون بهذه الخصلة قبل سواها من عامة خصاله، فإن بن جونسون لم يكن بالرجل الذي يرضيه ما يرضى غيره من شمائل الطبيعة والوداعة، وقد غضب مرة من أحد الممثلين فدعاه إلى المبارزة فقتله وأوشك أن يؤخذ به على أعواد المشنقة لولا سابقة له في الحرب ودالة له على بعض العظماء، وكان يلوم من يحسب إصابته بالمرض خبراً دون أخبار الزلازل وكوارث الطبيعة، وبينه وبين شكسبير منافسة قوية تثيره عليه ولا ترضيه عنه لو لم تكن سجية السماحة والمودة فيه أقوى من دوافع المنافسة والعداء، بل لا بد أن تكون المودة فيه قوة لا تقهر ولا

يسهل نكرانها أو إغفالها فى معترك الخصومة والمزاحمة بين أهل الفن وأصحاب المسارح ونظرء الأدب والوجاهة فى العاصمة والريف. وقد ارتفع فى شهرته إلى الذروة التى تغرى بالحسد والغيرة فى مجاله وفى غير مجاله، ولكنه لم يدع لأحد من منافسيه ذريعة للتجنى عليه، ولم يستدرجه أحد قط إلى مقابلة الخصومة بالخصومة ومجاوبة الذم بالذم والوقية بالوقية، وخرج من حرب الشهرة الزبون بعدو واحد متهم فى عداوته وصداقته، هاجمه عند زملائه وأصدقائه وبالغ فى إغرائهم بتصديق مثالبه وإقناعهم برأى فى الرجل مثل رأيه، فلم يكن لحملته صدى غير الإعراض.

وبىشاء القدر الساخر أن تبقى هذه الحملة العنيفة بعد ثلاثة قرون ليرجع إليها طلاب الشهادة لفضل الشاعر وكفايته وصدق دعواه، فهى اليوم حجة من الحجج المقنعة التى تقوم عليها سمعة شكسبير وتنتفى بها عنه شبهات الإبداع والانتحال، وتجد من ثمة مكانها فى سيرته بين كفتى الثناء والانتقاص، لترجح بها كفة الثناء.

فى الفصل الثالث من رواية هنرى السادس التى ألفها شكسبير كلمة يتحدث فيها عن قلب نمر فى إهاب امرأة، وهذه هى الكلمة التى استعارها روبرت جرین - منافس شكسبير فى التأليف المسرحى - ليقول إن قلب النمر إنما هو ذلك القلب الذى يكمن فى إهاب ممثل يظن أنه الوحيد الذى «يهز الستار» ويومئ بذلك إلى

اسم شكسبير الذى يتألف - كما تقدم - من كلمتين بمعنى «هزاز الروح»... ثم يحذر «جرين» زملاءه الشعراء من هذا الدعى الذى داخله الغرور فخيّل إليه أنه ينظم الشعر المرسل كأقدرهم وأبرعهم فى صناعة القصيد.

ولم تكن هذه الحملة أولى الحملات التى شنّها جرين على الممثلين الذين يرفضون رواياته أو يقبلونها ولا يحفلون بأرائه فى تمثيلها وإخراجها وتقدير حقوقها، فإنه أطال الحملة عليهم فى جملتهم وأفرد أناساً منهم بأسمائهم، وختم هذه الحملات المتواترة عليهم بحملته الأخيرة قبيل وفاته (١٥٩٢م) على شكسبير.

ويستوى شكسبير وزملاؤه الممثلون فى حملات جرين وشكاياته، ولكنه يزيد عليهم بأنه ممثل ومؤلف وناجح فى التمثيل والتأليف وملحوظ المكانة بين الممثلين والمؤلفين، ولا لوم عليه ولا على زملائه فيما أصابهم من جرين أو فيما أصابه منهم؛ لأنه قد أصيب فى الواقع من سوء فعله وخلقه وخابت آماله بعد أن تعلم فى جامعة كمبردج وتخرج فى جامعة أكسفورد فلم يدرك شأو النخبة الفلاحين، ممن اشتهروا باسم أذكىاء الجامعة ولم يدرك شأو الأدباء الذين انقطعوا للتأليف، وابتلى بداء الإدمان وعشرة المدمنين فأتلف ما عنده من قليل المال وتزوج على طمع فى مال امرأته، فأنفق ما عندها وطردها ليعيش مع امرأة مربية تنصب الحبائل للمخدوعين من طلاب اللعب والشراب، وقد جار المسكين على بدنه وعقله بالإدمان والإفراط،

وقضى نحبه فى الرابعة والثلاثين على أثر أكلة فاسدة أكثر فيها من أصناف الأنبذة والخمور، وكتب حملته الأخيرة وهو بهذه الحال من السقم والخبل والقنوط.

وأصدق ما فى هذه الحملة الجائرة ما أثبتته الكاتب على غير قصد منه فى رسالته إلى زملائه الشعراء، فإنه لم يقصد أن يثبت أن شكسبير هو مؤلف هنرى السادس وغيرها من الروايات التى تشترك معها فى موضوعها، ولم يقصد أن يثبت أن شكسبير كان له عمل فى المسرح غير التمثيل والإخراج، وهو كتابة الشعر المرسل ليجارى به أكبر شعراء زمانه غير قانع فيه بمنزلة التابع المسبوق حتى فى سنة ١٥٩٢م التى تعد من سنوات الابتداء فى حياته الأدبية، ولو أن شكسبير كان يدعى روايات المؤلفين المستترين لما خفى ذلك على رجل مثل جرين يخالط المسرحيين، ويخالط أذكىاء الجامعة، ويخالط المؤلفين وثرثرة المجالس الأدبية، ولا يفوته فى أدوار الرواية من يوم كتابتها ونسخها وإخراجها وتلاوة مناظرها فى دور التجربة وعثرات شكسبير فى النطق بألفاظها أن يكشف سرها الذى لا يخفى فى جميع هذه الأدوار، ولا شك أن تأليف هذه الروايات قد كان بعيداً من كل مظنة وكل واردة من واردات الخواطر حتى غاب أمره عن الحاسد الشائئ الذى يتصيد المزاعم لاتهام غريمه بالادعاء والانتحال.

فلم يقصد جرين أن يقيم هذه الحجة لتثبيت سمعة شكسبير وإدحاض التهمة عنه أو التشكيك فيها وإبعادها من ظنون التابعين،

كما كانت بعيدة من ظنون المعاصرين، ولكنها حجة تسبق إلى الخاطر على غير قصد من جرّين وممن يقرأون حملة جرّين؛ إذ ليس من اليسير على العقل أن يصدق أن ممثلاً غير أهل للتأليف يفاجئ القوم بالروايات من أرفع طراز في عصره، ويدعى أنه ألفها وهو لا يحسن فهمها ولا يحسن إخراجها، ثم تفوتهم هذه المفاجأة ويستعصى عليهم أن يلحظوها وينقبوا عن أسرارها، وهى ليست مما يطول خفاؤه فى رواية بعد رواية بين أدوار الكتابة والمراجعة والتوزيع والإخراج والإلقاء، وإن خفى ذلك على النظارة فلن يخفى على الممثل الخبير بصناعته وراء الستار، ولن يخفى على النبيل صاحب المسرح إذا كان المؤلف المستتر نبيلاً من أقرانه يتخطاه إلى فرقته المسرحية ليعرض على يديها عملاً لم يأذن به ولم يطلع عليه.

لم يقصد جرّين هذا ولم يقصد كذلك أن يقول إنه كان يخاطب أناساً يعتقدون فى شكسبير غير اعتقاده ويحذرون من صاحب يركنون إليه ولا يحذرونه، ولكنهم سمعوا هذا التحذير من الممثل الذى يخفى بين جوانحه قلب نمر فلم يصدقوه، وظل أحدهم - وأكبرهم - بن جونسون يركن إلى ذلك القلب ويصفه بعد نيف وعشرين سنة بالسلامة وبراعة الخلق من النفاق والمداجاة.

ويوشك أن نتعلم من سيرة شكسبير أن عفو الثناء أدل على الأقدار وأولى بالإصغاء إليه من الثناء المقصود، لأن عفو الثناء حكم عام يسرى بين الناس كلما خلا من التشيع والغرض، وقلما سلم

الثناء المقصود من نزعة مذهب أو مسحة هوى يغلب على قائله، وإن كان من الصادقين المصدقين.

وأخلى ما يكون الثناء من الغرض الخاص حين نستخلصه من مضامين النوادر والأحاديث ولا نعلم من قاله كأنه نبت وحده من بداهة عامة لا تتوقف على وجهة شخصية أو على فكرة مذهبية، وفي هذه السيرة أشتات من النوادر والأحاديث التي جرت هذا المجرى، وجاز أن تحسبها من الإشاعات المرسلة والأساطير الموضوعية التي تدل برموزها ولا تدل بوقائعها وأسانيدها.

زعموا أن شكسبير وصل إلى لندن بغير زاد وبغير معين فقاده حبه للتمثيل إلى باب المسرح ولبث يتردد عليه بغير عمل يستطيعه في داخله، أو في خارجه، غير حراسة الخيل لمن يرتادونه من النبلاء والنبيلات، ولم يلبث غير قليل حتى لفت إليه أنظار الرواد فجعلوا يسألون عنه ويتفقدونه ولا يسلمون خيلهم إلى غيره إلا إذا كرروا السؤال عنه فلم يجده، وتكاثر الطلب على حراسته فاستعان بصبيان له يجيبون النداء عليه، ويقول حاضرهم لمن يسأل عن «ولد شكسبير»: «أنا صبي شكسبير!

وكتب الدكتور صمويل جونسون علامة زمانه هذه القصة نقلًا عن مصدرها الأول الذي ظهر في سنة ١٧٥٣م ولم يرجع بها إلى مصدر قبل ذلك، ولكن النقاد من بعده تتبعوا القصة إلى مصادرها المحتملة ففهموا أن راويها سمعها من صديق، عن الأسقف نيوتن عن الشاعر

بوب، عن المؤرخ راو مترجم شكسبير، عن بترتون، عن سير وليام دافنتات معاصر شكسبير، ولم يجدوا القصة فى ترجمة راو كأنه استضعف سندها فلم يثبتها فيما نقله عن الرواة الثقات.

وهذه الأحداث قد تكون خبراً واقعاً وقد تكون إحدى الأحداث الموضوعية التى تضاف إلى تراجم المشهورين، ولكنها تروى لتقول لنا إن شكسبير كان على استعداد بفطرته لكسب الثقة والحمد ممن يعرفونه ويعاملونه، وإن له كياسة يصحبها النجاح والتفوق فيما تصدى له من عمل وإن صغر وهان.

وهذا ما نعنيه بعفو الثناء: ثناء لا يأتى بشىء من عنده ولا يخلق الواقع الذى يثنى عليه، ولكنه يكرره فى صورة من صور الخيال تعلق به كما تعلق الحواشى والأهداب بالصورة التى تبعت من شهادة الحس ومن تحصيل الحاصل، فهى توحى إلى الأذهان أن تعيد أوصافها بلون من ألوان الخيال.

فالنجاح والتفوق فى حياة الممثل شكسبير آية من آيات هذا الاستعداد العجيب لأنه نجاح لم يحرم صاحبه حظاً من الثقة والحمد بين زملائه المتخلفين عنه، ومنهم من ذهب إلى نهاية الشوط يوم كان هذا الطارئ على الفن يخطو على خشبات المسرح خطو المبتدئين المتطفلين، ولعله لم يبلغ فى دور من الأدوار غاية شوطه، ولكنه لم يجهل مداه من هذه الصناعة، ولم يخطئ فيما هو قادر عليه وما هو عاجز عنه من أشواطها، فأعطاه التمثيل قسارى ما يعطيه من علمه وعمله وجدواه.

ونجح شكسبير وتفوق في منافسة أخطر من منافسة الزملاء على خشبة المسرح، وهى منافسته لأكبر الزملاء فى تأليف المسرحيات، ونجاحه على الرغم من ذلك فى كسب الثقة والحمد منهم، وأكثرهم قد سبقوه إلى التأليف كما سبقوه فى مؤهلات الشهرة والدعوى، فمضى فى التأليف قدماً وتخلف وراءه أعلام مبرزون من طبقة مارلو وفلتشر وبوشى وناش ودرائتون ولايلى وبيل وكيد وبن جونسون وروبرت جرین، وفيما عدا هذا الأخير لم ينم عليه نجاحه وتفوقه أحد من هؤلاء الأعلام، ولم نسمع من شكسبير كلمة تشف عن نقمة من هذه المنافسة أو ضيق بتكالييفها.

وليس شكسبير المؤلف بصاحب الفضل فى هذه الصلة النادرة بينه وبين زملائه، فإن الإبداع فى التأليف لم يكن يوماً من الأيام ضماناً للحمد والثقة بين المتنافسين، وإنما الفضل لخليقة فى الرجل تكسر حدة الغيرة وتفلُّ سلاح العدوان وتوصل باب اللجاجة فى الخصومة على من يفتحه بغياً عليه.

تلك - فيما نحسب - خليقة الجد والدأب مع ثقة بالنفس وشعور بالمناعة يدعوه إلى المسألة ولا يستجيش فيه ثورة النضال مادام فى أمان من قدرته على عمله.

وخليقة الجد والدأب تشغله ولا ريب عن صفائر الكيد ولغو الفضول فى غير طائل لأن قرابة أربعين رواية وديواناً فى نحو عشر سنوات عمل شاغل يضاعفه عمل التمثيل والإدارة وتدبير أمر الأسرة

التي يعولها فى أزمتهأ، ولكنه عمل شاعل له لا يشغل منافسه  
عن الافتياء عليه وتضييع وقته، لولا عصمة من مناعته وثقة منه  
بنفسه وثقة منهم بفضله، وعزوف ينحيه عن طريق الثرثرة واللغط،  
ويئسهم أن ينالوا منه بعدوان لا يضيره ولا يسلمون من مذمته.

وربما كان للرجل شأن غير هذا الشأن لو أن رسالته فى الحياة  
كانت رسالة دعوة إلى عقيدة جديدة أو نقض لفكرة مخالفة، أو لو  
أنه كان مطبوعاً على مزاج الدعاة المصلحين الذين يحسون الأخطاء  
والعيوب فى أعمال الناس وأفكارهم فلا يملكون الصبر عليها  
ولا يهدأون أو يزيلوها ويتجددوا ليلاً ونهاراً لتبديلها.

فإن صاحب الدعوة إلى تبديل الأفكار مدفوع إلى الغضب والإغضب  
يثور على مخالفه ويثيرهم عليه، ويصدم شعورهم وتفكيرهم  
ويتلقى صدماتهم لشعوره وتفكيره، وليس فى مقدوره أن يتجنب  
النضال أو يسكن إلى حياة المسالمة أو المودعة؛ لأن السكينة وتحريك  
الأفكار للدفاع والهجوم نقيضان لا يتفقان.

ومن كان مطبوعاً على مزاج الدعاة المصلحين فهو منذور لحياة  
القلق والنضال لاعتقاده أن الإصلاح ضربة لازب وأن الشرور تنتهى  
على أيدي المصلحين وتنقضى بانقضاء الزمن الذى هى فيه، وربما  
تجرد للإصلاح وهو لا يؤمن كل الإيمان بزوال الشرور على يديه أو  
على أيدي المصلحين من بعده، ولكنه يتجرد لجهاده لأنه لا يطبق  
التوفيق بين حالته وحالة زمنه، ولا يخشى من الجهاد قلقاً أشد  
عليه من قلق الصبر على ما يخالفه ويستثير سخطه على قومه.

أما شكسبير فلم تكن رسالته دعوة يثيرها بل كانت رسالة عمل يؤديه، فإذا صور الدنيا على صورتها فقد وفى عمله كل حقه ورفع المرآة الصادقة أمام دنياه لتصلح من أمرها ما تريد، وإذا بدا لدنياه أنها راضية عن عيوبها لم يعجلها عن هذا الرضا وتركها على مهل إلى اليوم الذى تتبدل فيه على مهل؛ لأنها لن تدوم على حال. ولو أنه سيق اضطراراً إلى رسالة من رسالات الدعوة لما وجد فى نفسه طبيعة الدعاة، لأنه خلق بطبيعة الحكيم المتأمل ولم يخلق بطبيعة القلق المناضل المدفوع إلى تبديل ما يخالفه من أمور زمنه، وفى وسعه أن يحيط من زمنه بخيره وشره ووفاقه وشقاقه، وليس عسيراً عليه أن يصنع الهوادة مع الحياة على علاتها كيف كانت، وكيف كان.

تتراءى لنا هذه الطبيعة فيه من موقفه بين مذاهب الخلاف فى زمنه، وهو من أكثر العصور مذاهب خلاف.

كان فيه خلاف بين الإنسانيين المجددين وبين المحافظين الجامدين، وكان فيه خلاف بين البابويين والمحتجين على البابوية، وكان فيه خلاف بين البابويين فى داخلهم من المسلمين بالواقع ومن المعارضين القائلين بالرجعة إلى سنة السلف الأولين، وكان فيه خلاف بين المتطهرين أنصار الحجر والشطف وبين المترخصين أنصار الهوادة والسماحة، وكان فيه خلاف بين المدرسة التجريبية ومدرسة الفلسفة الإغريقية اللاتينية، وكان خلاف العصر فى السياسة بين

شيعة الأسرة الذاهبة وشيعة الأسرة المقبلة أشد من خلاف المختلفين على مذاهب الدين والعلم والفن والأخلاق.

وأين كان شكسبير من كل هذا؟ كان في حومتها وكانت كلها في ميزانه بأقدارها وأثقالها، ولم يكن هو ذاهب القرار مختل الوزن بين كفتيها.

هل كان بابويا؟ هل كان بروتستانتيا؟ هل كان منشقا على الكنيسة متبعاً لنحلة من نحل المنشقين عليها؟ هل كان من المتطهرين؟ هل كان من الإنسانيين؟ هل كان على عقيدة أو كان منكرًا لا يؤمن بدين؟

دافيز ريتشارد القس الكاثوليكي المتوفى سنة ١٥٠٦م يقول عنه إنه مات على مذهب الكنيسة البابوية، ويدون ذلك في أوراقه التي وجدت بعد موته ولم يعدها للنشر أو الدعاية. وفريب Fripp المتوفى سنة ١٩٣١م يقول إنه كان من الغلاة في مذهب البروتستانتية، وهو مؤرخ من مترجمي الشاعر المتأخرين ولكنه تولى أمانة التراث الشكسبيري في قريته وتخصص في إلقاء المحاضرات عنه في أندية العواصم الإنجليزية، وشمل بدراسته تراجم أصدقائه وصحبه وتاريخ ستراتفورد في جملته، وهو الذي قال عن الشاعر إنه كان أديباً موفور الثقافة واسع الاطلاع.

وغير هذين يقولون غير هذا وذاك، ولكنهم يأخذون جميعاً بالقرينة والاستنتاج من سيرته وأقواله في رواياته، ولا يذكرون لنا خبراً قاطعاً عن مذهب معلوم كان ينتمي إليه.

ومن أمثلة هذه القرائن أن القس الذى قام بعمادته كان من غلاة المتشيعين لمذهب البروتستانتية، وأن الشاعر كانت له صدقات لبيوت من معاهد الإحسان لا تتبع الكنيسة البابوية، ولكن القرائن من هذا القبيل لا تقطع بانتمائه إلى البروتستانتية إلا إذا قطعت بانتماء أبناء ستراتفورد جميعاً إليها، إذا كان قس كنيستها يقوم بتعميد جميع أبنائها، وكانت صدقات الشاعر تعم المحتاجين إليها من أبناء القرية ولا تخص فريقاً منها.

وفيما عدا هذا القرائن يرى بعض المعقبين أنه كان بابويا لأنه كان يغمز أتباع البروتستانتية فى رواياته الفكاهية ويعرضهم على صورة من صور السخرية والاستخفاف، كما يلوح من صورة سير ناثانيل فى رواية «عناء الحب الضائع»، وصورة سير أوليفر مارتكست فى رواية «كما تهوى» وفى صورة سير هوج إيفانز فى رواية «زوجات وندسور المرحات»، وأنه كان يمقت النحل المنشقة كما جاء فى رواية «الليلة الثانية عشرة» إذ يقول: «لست سياسياً، وإنى لأوثر أن أكون براونياً على أن أكون فى زمرة الساسة!».

والبراونيون هم أتباع روبرت براون الذى كان ينكر قوامة الأساقفة ويخول كل طائفة متعبدة أن تنشئ معبدها حيث شاءت وتختار له الوعاظ والقساوسة مستقلين عن أحبار الكنيسة ورؤساء الدولة.

إلا أن الشاعر كان يلقي على ألسنة أبطاله ما يناسبهم من القول على حسب الموقف أو على حسب مدار الحوار، وقد جعل الملك جون

يقول لبندلف رسول البابا إنه لا يسمح للإيطاليين برئاسة الدين تحت سلطانه المستمد من السماء، ولما قال له فيليب ملك فرنسا: إنك تجدف أيها الأخ! أجابه معرّضاً بالرشوة والفساد فى الوصايا البابوية!

وليس لشكسبير رأى فى مذهب المتطهرين ولا فى مذهب الإنسانيين على غير هذا المثال الذى يتبعه فى إملاء الآراء على السنة المتكلمين حسب مواقفهم وأدوارهم فى الروايات، وإنما المرجع إلى قرائن الرأى إن كانت فيها قرينة من لهجة الخطاب يحس منها القارئ أنه مفرغ فى قالب الموافقة والارتياح أو مفروض على المؤلف بمقتضى المقام على حكم الحوار.

إلا أن قرائن الآراء فى كلامه على مذهب المتطهرين ومذهب الإنسانيين لا تحتاج إلى عناء كبير فى الموازنة والاستنتاج، لأنها غير مقصورة على المواقف فى بعض الروايات، بل هى قرائن مجتمعة نستمددها من عمله كله ومن حياته كلها، ومما قاله على لسان غيره ومما لا حاجة به إلى قول.

فهو لا يذكر المتطهرين بأسمائهم ولا يذكر مذهبهم باسمه، ولكنه ينعتهم بصفاتهم ويومئ إلى مبادئهم وتقاليدهم، ويكاد يستدعيهم إلى المسرح ليطردهم منه على عجل مُشيعين بنظرات الضجر والاستخفاف، ولا حاجة إلى هذه الأقوال المعترضة لاستخلاص رأى الشاعر فى هذا المذهب وفى غلاة أتباعه من أبناء

عصره، فإن الرجل الذى يدين بمذهب المتطهرين أو ينظر إليه نظرة العطف والإغضاء لا يقضى حياته فى المسرح بين قراءة وتمثيل وتأليف وإدارة وإشراف، ولا يستطيع التوفيق يوماً واحداً بين رسالة حياته ورسالة القوم الذين يتخرجون من رؤية المسرح بين أسوار المدينة ويلحقونه بالحانة والماخور وبؤرة الفساد.

ولم يذكر الشاعر مذهب الإنسانيين باسمه، ولكنه ذكر الإنسانية وآدابها فى مواطن متفرقة تنصرف إلى معناها فى مذهب الإنسانيين، وقال فى رواية «هنرى الرابع»: «لو كان لى ألف ولد لعلمتهم أول مبادئ الإنسانية» وتحدث فى رواية «هملت» عن الذين يحاكون الإنسانية محاكاة بغيضة، وقال فى مواقف السخط برواية «عبد الله»: «إننى آوى إلى مسلاخ القرد بدلاً من هذه الإنسانية...» وجأر بصيحة كهذه الصيحة فى رواية تيمون.

على أن الشاعر فى غنى عن كلام يقوله بلسانه أو لسان غيره لنعلم منه أنه «إنسانى» فى عقيدته وتفكيره، فإنه يؤمن بكل ما احتواه المذهب من عقيدة أو فكرة، إن آمن بإحياء الفنون والإقبال على الحياة وعرف حدود الطبيعة الإنسانية، وهو من ثم أكبر من مؤمن بالمذهب وأكبر من مستجيب فيه إلى دعوة السابقين إليه: هو ركن من أركان النهضة الإنسانية يقيمها بعمله وسيرته وإن لم يشرحها بحجته وبيانه، وهو ظاهرة من ظواهر هذه النهضة قد أظهره فى عصره ما أظهرها فى عصرها، وتُقاس به كما يقاس بها فى تفصيل مقدماتها وأطوارها.

ونرى أن النهضة الإنسانية تقاس به قبل أن يقاس بها، لأنه يحتويها ولا تحتويه كله في عقيدته وتفكيره، ولأنه يمضى معها إلى حدودها الصالحة ولا يجاوزها إلى ما وراءها، وهو القائل بلسان هملت: «إن في السماء والأرض أموراً أعظم مما تحمل به فلسفتك يا هوراشيو»... وهو الذى بلغ بالإنسانية إلى قرارها حيث يتمنى الإنسان أن يستبدل بها سلاح القرد، وحيث يصبح الإنسان إنساناً زائفاً بالمشابهة والمحاكاة.

وهكذا يصدق طبعه في موقفه من فلسفة الإنسانيين كما صدق طبعه في مواقفه من مذاهب المتطهرين والبابويين والمنشقين والبروتستانت أو المحتجين على اختلاف الدعاة وأسباب الاجتماع، فهي كلها فى ميزانه بأقدارها وأثقالها، وليس هو بالحائر المضطرب بين كفتيها، وهو يلوح ما يؤخذ عليها ويرد هذه المآخذ بالسننة خصومها، ولا يلزم من ترديدها أن يقرها على علاتها، ولكنه يلقيها بلسان غيره عن علم بها ثم لا يفوته أن يميز بين لبابها وقشورها.

ولم نعلم من كلام شكسبير أنه كان مطلعاً على كتب دينه وأنه يكاد يستظهر أسفار العهدين القديم والجديد بحروفها، ولكننا نعلم هذا من أسلوبه ومن تركيب عباراته لأنه يشبه تركيب الجمل فى نصوص الترجمتين: ترجمة القرن السادس عشر التى ظهرت قبل مولده بخمس سنوات، وترجمة القرن السابع عشر التى ظهرت

قبل وفاته بعشر سنوات ، واطلاعه على هذه النصوص اطلع من يفهم ويحفظ ويضع الشاهد الموافق في مكان الحاجة إليه.

\*\*\*

ونحن إذا قلنا بعد هذه التقديرات إننا نعلم القليل عن عقيدة شكسبير على سبيل اليقين، فقد قلنا الكثير عن طبيعة الرجل وتكون مزاجه، وهما سبب السؤال عن عقيدته يوم كان الناس يقذفون بعقائدهم في وجه من يسأل عنها ومن لا يسأل، وناهيك بزمان كان يتوسط النهضة بمنازعاتها في الدين والعلم والسياسة، ويفتتح الثورة التي ثلت العروش وطاحت برؤوس الملوك في وطنه وإلى جوار وطنه وفي العالم الجديد بين أبناء جلدته ومن عاش معهم من ورثة النهضة والإصلاح.

في ذلك الزمن كان صاحب المعتقد يأخذ بتلابيب الناس ليعلمهم برأيه ويقسرمهم عليه، وها هنا رجل يعرف من دعوات زمنه وعيوب أهله ما يجهره الكثيرون ويكتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده عن طبائع الناس وحقائق الحياة، ونسأل عن عقيدته فنبحث عنها في طوايا كتبه ولا نعلم منها غير القليل من طريق الظن والتقدير.

لو كان لا يعلم ولا يعمل لأمكن أن يقال إنه جاهل لا يدري ما حوله، ولما احتاج أحد في أمره إلى سؤال.

ولكنه يعلم ويعمل، فإن جهلنا اليقين من عقيدته فليس اليقين من تكوين مزاجه بمجهول: إنه مزاج رجل يعرف رسالته فيعكف عليها، ويفرغ للجد والدأب في أدائها على وجهها.

إنه رجل يغلب فيه مزاج الحكيم المتأمل على مزاج الثائر الغيور، وشقيقه إلى وجدانه وضميره أنه ينظر إلى جانب هنا وجانب هناك، وأنه لا يرى بينهما موقع الفصل بين الخير والشر ولا قضية الحياة والموت في مشكلات الماضى والحاضر، ومن ورائها مشكلات الغد المجهول.

وندع المفاضلة بين المزاجين لموضعها من كتب الأخلاق وعلم السلوك. ونكتفى هنا بأن نقول إن الفضل لأحدها على الآخر لا يطرد على إطلاقه في كل قضية وكل آونة. فرب قضية تكون فيها الحكمة جبناً لا يغتفر، ورب قضية فى آونة أخرى تكون فيها الحكمة فريضة لا هوادة فيها، ومناطق الفصل بين المزاجين فى هذه السيرة أن نسأل من يطالبون الشاعر بمزاج غير مزاجه ويوجبون عليه حمل السلاح غيوراً ثائراً: فى أى جانب يريدون منه أن يحمل سلاحه؟

لقد كان موقفه بين الجوانب موقف المؤمن الذى لا تؤويه حظيرة من حظائرها، وكان يؤمن بعظمة الله وعظمة هذا الكون الذى تغيب أسرارها فى سمائه وأرضه عن فلسفة الحكيم ومعرفة العليم، وكان يأخذ على كل نحلة من نحل العصر مواضع الهدة فيها، ولا يبرئ إحداها من سوء المغبة ولا ينوط حسن المغبة بسواها، ففى أى جانب منها يحمل سلاحه وإلى أى جانب منها يسد ذلك السلاح؟

إنه صنع فى حياته ما كان عليه أن يصنعه لو أنه عاد إلى الحياة بعد ثلاثمائة سنة، وهذه المئات الثلاث من دورات الفلك هى مسافة

السبق بين وعى العبقريّة الخالد ووعى السالف العابر الذي يغمره  
غبار المعركة فترميّه ضجة هنا وتتلقاه صيحة هناك، وتنقضى  
حملته ولما ينكشف للمعركة غبار.

\* \* \*

ويبدو أن قوام هذا المزاج الناجح الرضى كان صفة لا يظن لأول وهلة  
أنها تساعد صاحبها على كسب النجاح والرضا، وهى صفة العزوف.  
وغير بعيد أن تكون صفة العزوف قد ساعدته فى حياة الفكر  
كما ساعدته فى أسباب المعيشة ومعاملة الناس، لأنها يسرت له  
أن يقف موقف الحيدة بين أبطاله وشخص روائياته، فاستطاع أن  
يعطى كل شخص من أولئك الشخصيات وجهة النظر التى تناسبه فى  
الرواية وأن يلقي على لسانه كلامه الذى يطابق تلك الوجهة دون  
أن يتخلله بكلام المؤلف على حسب تفكيره وشعوره.

والعزوف - كما أسفنا - صفة لا يظن لأول وهلة أنها تساعد  
صاحبها على النجاح وكسب رضا الناس، لولا أن العزوف فى نفس  
متعددة الجوانب غير العزوف فى النفوس الضيقة التى يستوعبها  
جانباها المحدود فلا تتسع لغيره، إن العزوف فى نفس قادرة على  
الاشتغال بمختلف الشواغل يلهمها أن تدع الناس وما يعينهم  
وتتفرغ لما يعينها من أعمالها، ومن عزف عن الناس فمن اليسير  
عليه أن يقول «لا يعينى» وأن يجعل هذه القولة شعاره فى علاقاته  
بغيره وسياسته لنفسه، وليس أيسر من كسب رضا الناس بهذا

العزوف، ولا أقرب إلى النجاح ممن يعكف على شأنه ويصدق عن الفضول في مطالبه وأحواله.

ومهما يكن من أثر هذه الصفة في نجاحه بين زملائه فلا ريب أنها أكسبته ذلك السمات الرصين الذي كان يضمن له الكرامة في كل بيئة يتصل بها ويعيش بين ظهرانيها على قدر ورفق فلا تمله ولا تنظر إليه نظرتها إلى المقتحم المتطفل عليها.

وكرامة الطبع هي التي خولته كرامة اللقب؛ لأنهم رأوه في بيئة الألقاب أهلاً لحلة التشريف التي توجب لصاحبها أن يلقب بلقب السيد أو الجنتلمان، فكان سيداً بأدبه قبل أن يكون سيداً بلقبه، وتيسر له أن يدرك اللقب الذي لا يدركه كل من سعى إليه وقد كان المتأدبون من نبلاء عصره يقربونه ويستقبلونه في مجالسهم بين خاصتهم وعشرائهم، وارتفعت منزلته في بلاط الملكة اليصابات فشملت برعايته أكبر من رعاية الفنان المستحسن على المسرح، واقترحت عليه تأليف الأدوار التي تحب أن تراها ممثلة على مسرح القصر، ومنها دور فلستاف في موقف غرام.

ولم يعرف في تاريخ ملوك الإنجليز أن أحداً منهم كتب بيده خطاب إعجاب إلى ممثل مؤلف غير شكسبير، فقد كتب له جيمس الأول خطاباً خاصاً لم يعهد إلى أمناء حاشيته أن ينوبوا عنه في تسطيره، بل سطره بيده، وظل الخطاب محفوظاً إلى سنة ١٨٧٠م ثم ضاع ولم يظهر له أثر بعد ذلك، ولكن الأستاذ هسكت بيرسون Hesketh يروى عن

اللورد بمبروك Pembroke أن جده رآه واطلع عليه، وأن عمته من عماته عاشت إلى سنة ١٩٢٠م رأت الخطاب فى صباها.

وجدير بالملاحظة أن شكسبير لم يحفظ هذا الخطاب، وإنما حفظه سير دافنانت D'Avenant (الذى قيل إنه ابن غير شرعى لشكسبير)، ووردت أول إشارة إليه فى تقديم قصائد الشاعر فى طبعة لنتوت Lintot التى ظهرت سنة ١٧٠٩م نقلا عن الدوق أف بكنجهام.

ويلاحظ كذلك أن الشاعر لم يذكر فى رسائله ولا فى أقواله المحفوظة شيئاً عن حظوته فى البلاط الملكى ولا عن عطف الملكة اليصابات والملك جيمس عليه، ولكننا نعلم ذلك من أبيات للشاعر بن جونسون يتحدث فيها عن بجة نهر أفون الحلوة التى ترفرف على نهر التاميز وتروق رفرقتها أعين اليصابات وجيمس، وموضع الملاحظة فى سكوت شكسبير عن هذه الأحاديث أنه لا يعنى بالحظوة الملكية ولا بالمكانة المرعية بين عليه القوم لأنه يفخر بها فيدل بها على أقرانه، وإنما يطلبها ليصون كرامته ثم لا يبالى متى صينت له هذه الكرامة أن يغض بها من كرامة الآخرين، وليس بالمستغرب من هذا العزوف السليم أن يكسب صاحبه الرضا، لأنه يقل سلاح الحسد ويكسر شوكة الغيرة.

\*\*\*

تلك صورة جليلة من تلك الشخصية تخرجها لنا البداهة من الواقع الثابت الذى لا عمل فيه للسمع والرواية، ونعتقد أن مترجم

شكسبير فى حل من قبول السماع والرواية فيما يطابق تلك الصورة البديهية؛ لأن لسان الحال يطابق فيها لسان المقال، وقد يعرض الشك للرواية المسموعة فى جيل بعد جيل الشاعر على ألسنة مجهولة السند متناقضة الخبر، ويضيق مورد الشك فى صفة تملئها البداهة ويؤيدها السماع.

كان أقدم مترجميه أوبرى Aubrey (١٦٢٦ - ١٦٩٧ م) قد ولد بعد وفاته بعشر سنين، وكان رحالة طُلعةً يتنقل بين البلدان والأندية ويتلقف النوادر والغرائب من أفواه الثقات وغير الثقات ويسرع إلى تدوينها جزافاً فى دفتره بإسنادها إلى روايتها ممن صادفهم فى حله وترحاله، وكان إذا أولع بترجمة يحبها يتحرى مواطن السؤال عنها ولا يخطئه التوفيق فى اختيار مراجعها، وكان على ولع شديد بسيرة شكسبير فبحث عن عرفوه أو عرفوا أحداً من أقرانه وعشرائه، وأجدرهم بالتعويل عليه ابن بيستون Beeston الممثل المشهور الذى كان زميلاً لشكسبير فى فرقته وجليساً له فى أوقات فراغه، وجملة ما رواه عن صفاته وعاداته من هذه المراجع أنه «كان وسيماً مليح المنظر، حسن المجالسة جداً سريع الخاطر جداً، وديعاً ودوداً ظريف الفكاهة، وكان من عاداته أن يزور قريته مرة كل عام فى أيام مقامه بلندن، ومن أصحابه المعدودين توماس شدويل Shadweel الممثل الفكاهى النابغ، وهو يذكره، فيقول إنه خصب الذهن، فياض القريحة، يفوق زملاءه من كتاب المسرحيات

ولم يكن من عادته أن يمحو سطرًا مما يكتبه. ويعقب بن جونسون على ذلك فيقول: وددت لو أنه محأ ألف سطر! وستعيش ملهياته ما بقى قارئ يفهم الإنجليزية.

ولم يرد فى كلام أوبرى شىء عن عادته وملاهيته فى غير مجالس المسامرة، ولكن سير والتر رالى Raleigh مترجم شكسبير فى القرن التاسع عشر يعتمد على مسرحيات شكسبير وعلى الذكريات المنقولة، فيقول عنه إنه كان يشترك فى رحلات الصيد ويتقن من هذه الرياضة ملاحقة الطرائد واستخدام البزاة.

ويتوسط بين أوبرى ورالى فى الزمن مترجم معجب بالشاعر كان يتولى رعاية الكنيسة بقرية سترااتفورد من سنة ١٦٦٢م إلى سنة ١٦٨١م، ويتتبع أخبار الشاعر من كبراء السن فيها، وذلك هو القس جون وارد Ward جد السيدة سيدون أعظم الممثلات فى أدوار شكسبير، وهو يسرد من تلك الأخبار أشتاتاً متفرقة لا يسندها إلى مرجع معروف ويختمها بقوله: «إن شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا فى مجلس طرب وأكثروا من الشرب على ما يظهر؛ لأن شكسبير مات بالحمى التى أصابته بعد ذلك».

وليس الغريب فى هذا الخبر أن شكسبير يشرب مع زملائه، فإنه لم يكن بدعاً فى عادات العصر بين قومه ولا بين زملائه، ولم يكن من طائفة المتطهرين التى تدين بالحمية فى الطعام والشراب، ولكن الغريب أن يفرط فى معاقرة الخمر حتى يقضى عليه من

جرائها إذ لا يعقل أن يفرط الرجل فى الشراب ويفرغ للعمل الذى أتمه فى الكتابة والتمثيل وإدارة المسرح وتدبير شئون الأسرة فى مقامه بلندن ومقامه بقريته، وأن يحدث منه ذلك بعد أن جاوز الخمسين.

ونحسب أن القس جون وارد عجب من أن يقضى الشاعر نحبه فى الثانية والخمسين بغير علة معلومة ولا حادث طارئ، فعلى موته بإصابة عارضة من حمى الشراب، وما كان للقس أن يعجب لموت بطله قبل علو السن لو قابل بين عمره وأعمار إخوته وأبنائه، فإنه نبت فى قوم قصر الأعمار وأحس وطأة الموت وهو فى الثلاثين كما جاء فى موشحته الثالثة والسبعين، وختم حياة العمل والاعتراب عن موطنه فى نحو الخامسة والأربعين، فإذا كان للشراب أثر فى التعجيل بأجله فلا حاجة إلى الإفراط فيه لتقصير هذا العمل القصير.

\*\*\*

وبعد، فنحن نقنع من الأخبار والقرائن بهذه الصورة الصغيرة «للإنسان» شكسبير لأننا لم نعثر بصورة له تغنينا عنها، وهى على الجملة صورة صغيرة مجردة من الألوان الواضحة، ولكنها على صغرها ونصول ألوانها صادقة الشبه واضحة الخطوط، وقد نحصر خطوطها الواضحة فى كلمتين حين نقول إن «الإنسان شكسبير» هو القروى العالمى الذى نفهمه كلما فهمنا العالم الذى عاش فيه والقرية التى نبت منها ولم ينقطع عنها حتى عاد إليها.

فلا تتم فى أخلاطنا صورة «الإنسان شكسبير» إلا إذا عرفنا أنه عاش فى عالم الكشوف الذى تراجع حولہ حدود المجهول فى الأرض والسماة وفى أغوار الطبيعة الإنسانية، وإن أهم هذه الكشوف لهو هذا الكشف عن طبيعة الإنسان فىما يغنينا من ملكات الرجل الذى تقوم رسالته على تصوير مئات من الرجال والنساء يمثلون الطبائع على خيرها وشرها، ويتقاربون أو يتباعدون على ضروب من العلاقات قلما تغيب عنها علاقة بين إنسان وإنسان.

ولا تتم صورة العبقرى العالى بغير تلك الخطوط التى ترتسم بها سمات القرية بناحياتها الطبيعية وناحياتها الاجتماعية فى تلك العبقرية الخالدة، فإن القرية هى التى ترسم لنا من صورة شكسبير الإنسان ملامح السمات والحرص على السمعة وتوجيهه خلائق الجد والدأب إلى غايتها فى القرية بين غايات الفن والشهرة، وقد تفسر لنا هذه الخطوط القروية خفايا السنوات المجهولة فرضى عن تفسيرها؛ حيث يتركنا كل تفسير عداه متطلعين إلى سؤال لا جواب عليه.

فلا لغز فى اختباء شكسبير بضع سنوات يشتغل فيها بالتمثيل منزويًا عن عشيرته الأولى قبل أن ترتفع عنه معابة الاشتغال بهذه الصناعة، وقبل أن يحمده من أسرته مغبة الانتساب إليها.

وما من غرابة فى هذا المسلك تلجئنا إلى طلب التفسير، لأنه المسلك الذى لا مسلك سواه بين يديه، ولا فكك منه للفنان المطبوع

الذى ولد قروياً ومات قروياً ولم تصرفه المدنية ولا العالم عن أحضان الطبيعة فى قريته بين مآلف صباه ومعاهد آله وعشيرته. فلم يكد يفرغ من حق المدنية والعالم عليه حتى عاد إلى القرية التى أعطته حياته الأولى ليعطيها بقية حياته.

\* \* \*